في توديع الرئيس ترومان

تمثال البيت الأبيض

للدكتور علي شرف الدين

في البيت الأبيض — حيث يقيم الرئيس ترومان — أبدع ما أخرج الفن الحديث من معجزاته الروائع ، فيما يرى الناظر من التماثيل القائمة في مداخل القصر وحدائقه ، وفي أبهائه وتحت شرفاته . طراز جديد من فن المثالة الحديثة ، يكاد يسبق هذه الآيات الخالدة التي حفظها لنا التاريخ عن أيدي الإغريق . وإذا كانوا يقولون إن الفن الإغريقي قد سبق الطبيعة ، وكأنه في سبقه لها ، وتجاوزه لصورها ، يقيم لها مثالا يتحدث إليها في صمت : بأنه كان يجب أن تكون على غراره — فإن تماثيل البيت الأبيض لا توحي بهذا إلى النفس فقط ، ولكن كل واحد منها ينطق مفصحاً عما يريد ، حتى ليرن صدى صوته في الأذن ، وحتى لتكاد أسارير وجهه تأخذ بين الفينة والأخرى سحة جديدة تعبر عن عواطفه ، وحتى ليكاد الرائي يسمع خفقات قلبه بين ضلوعه الصخرية الجامدة

وهم يقولون إن الرئيس ترومان كثير النظر إلى هذه التماثيل طويل الوقوف إلى جانبها ، وإنه — على أن السياسة تأخذ حيزه من أقطارها — له لحظات يخلو فيها إلى الفن ، حيث تسبح نفسه في عالم الخيال ساعة من نهار ، وإن انغمست بقية يومها في متاعب الدولار

ولعل أبلغ هذه التماثيل أثراً في نفس الرئيس ترومان ، هو تمثال الوطن ، وهو يتألف من صخرة طبيعية قد اتخذ المثال من جانبيها المعتدلين في انحناء درجاً يصعد بمنة ويسرة ، حيث يلتقيان عند سطح مستو ينهض فيه تمثال أم حنون ، تستقبل أطفالها عند الغروب ، وهم يصعدون إليها في جانبي الدرج متدافعين متعثرين ، ولكن جباههم على تعثرهم تتجه نحو الأم دائما ، بينما تمد الأم يديها نحو الجانبين جميعا ، لا يلهيها أحدهما عن الآخر ، في إقبال كله العطف والرحمة والوفاء

قالوا إن الرئيس ترومان قد ألف الوقوف إلى جانب تمثال الوطن ، وإن جواره للتمثال أمر لا مفر منه في حياته اليومية ، لأنه تمثال الوطن — مع أنه يقع خلف البيت الأبيض وفي جانبه الذي تكاد أبوابه تغلق طول العام — هو طريق وحيد يدلف منه المار إلى ربوة صناعية تحتشد فيها مواكب من الزهر النادر ، تآزر فيها جمال الطبيعة مع ألوان التطعيم الصناعي ، يختلف إليها الرئيس من حين لآخر ، ينشد عندها نشاط نفسه وإشراقها ، كلما أرهقتها مظالم الحضارة

ولكن المتصلين بالرئيس ترومان قد رأوا منه ما أثار الدهشة في نفوسهم . فقد أخذ وقوفه إلى جانب التمثال يقصر عن ذي قبل ، ولم يعد سكونه إليه يحفه هذا الحلم الجميل يشيع في أقطار نفسه ، ثم يستحيل في جبهته وعارضه ضياء مشرقاً . لم يعد سكون الأحلام والطيوف ، ولكنه ذهول عميق تكتسي فيه صفحة وجهه فنوناً من الألوان تضطرب دائما بين الشحوب والسواد . ولم يمض غير يسير من الزمن حتى هجر الرئيس تمثال الوطن ، ولم يعد يختلف إلى هذه الربوة من النوار ، يصطنع فيها ما يصطنعه الفنانون وأصحاب العاطفة ، حين يقرأون كتاب الوجود في المروج والزهر . وللرئيس مع تمثال الوطن ما نسميه مجرى العادة الكبوتة — إذا صح هذا التعبير — لا يكاد يتجه نحوه عن غير قصد ، حتى يدور على عقبه في حركة عصبية لا تخلو من ألم ، والتفاتة مفاجئة لا تخلو من حزن ، وسرعان ما يجري في تضاعيف وجهه سحابة ليست هي الألم والحزن ، ولكنها شيء أمر من الألم والحزن : هي التمرد الذي لا يخلو من خوف ، وهي محاولة النسيان تصرخ في جوانبها المغالطة ، يضطرب فيها الرئيس أشد الاضطراب وأعنفه وقد خذله النسيان كلما مر بتمثال الوطن

ويؤرخ المراقبون لحياة الرئيس اليومية هذه الحركة التي لا تخلو من حزن مرير يخالطه الألم والخوف واليأس جميعا بعام سنة ١٩٤٨ بعيد خروج العرب من فلسطين عنوة ، بأمر الرئيس ترومان وتدبيره ، ويقولون إنه غالب شعوره في أول الأمر بفنون من رباطة الجأش المصنوعة ، وضروب من الجمود

لا تجديه فتيلا ، ومع أن الرئيس ترومان معروف بإصرار مرهق مبعثه الجمود ، ومشهور بجمود طبيعي مبعثه الإصرار سواء في الحق أو الباطل ... فإن جموده الطبيعي قد خانه في موقفه مع التمثال ، فلا تكاد عينه تقع عليه حتى تمضي في أعصابه هزات عنيفة هي هذه الصواعق المهلكة من الحزن والألم والخوف جميعا ، وحتى تمضي بنفسه خواطر صارخة قاتلة ، تحمل في بروقها شريطا متصل النكبات على نفسه الإنسانية ، فيما يتمثل له في الجوع والعرى والبرد والفقر ...

ولو أن ما تحمل الذكرى إلى نفس الرئيس ترومان كان مقصوراً على الفقر والعرى والجوع والبرد ، لهان أمرها وغالب ضميره بشيء من الجمود هو فيه طبيعي ، واستطاع أن ينسى إنسانيته في ساعات الذكرى ، لأن الفقر والعرى والجوع والبرد هي محن عادية مهما بلغ أثرها ، تصيب الجسم فتسبغ عليه النعمة والرقة ، أو تذيقه الشقاء والألم . مصابه ليس إذن ماديا ، ولكنه مصاب روحي يتجاوز هذه الكلمات اليسيرة فيما نسميه الظلم والنمرة والطغيان . مصابه أنه أوضح للخليقة ، وكتب بيده في سجل التاريخ ، أنه رجل لا يدرك ما معنى الوطن ، ولا يستطيع أن يحس هذه الروابط المقدسة الحبيبة بين الإنسان ووطنه ، على سهولة إدراكها ، ويسر الشعور بها — حتى عند الحيوان — لأنها من أوليات الشعور

أما لك أيها الرئيس منزل بالريف ، ورثته عن (أبوك) مثلا ، متواضع أشد التواضع ، حتى ما تحب أن تستقبل فيه ضيفك ، ولكنه على تواضعه ، وعدم أهليته لاستقبال الضيف تحب أن تراه من آن لآخر ؟ فتهجر البيت الأبيض ، وما أقامت لك فيه أمريكا من مجد مغصوب زائف ، إلى حيث هذا المنزل المتواضع ، حيث تحس في قربك منه برد الراحة ، يرد إلى نفسك الشفاء والعافية ، وقد أثقلتها مظالم الحضارة ، وحيث تشعر بجمال الصدق والبقاء على الوفاء في موطن هجرته إلى خير منه ، فما تنير عليك إذ فارقته ، ولا تنكر إذ هجرته ، ولكنه ظل صادقا في استقباله لك ، وفيا مخلصا يحمل إلى قلبك خير الذكريات حتى أصبح جزءا من حياتك ، أو هو الحياة نفسها في أسمى معانيها الروحية

لقد سمعت أن الدكتور فاضل الجمالي معنى أشد العناية بعرب فلسطين الذين طردهم ترومان عنوة من ديارهم قبيل الانتخابات (التظيفة) التي أعطته مكانه في البيت الأبيض . لقد عرض عليهم ترحيب البلاد العربية بقدومهم ، وأنهم منها ومن صدور أبنائها في المكان الرحب الكريم ، فماذا كان جوابهم ؟ لقد أجابوا : لا نريد بغير وطننا بديلا . ليس هناك جواب أصدق وأروع من جوابهم : « لا نريد بغير وطننا بديلا » . وإني أؤكد — وهم العرب الخلص — لو كانوا قد نشأوا في سيبيريا وفي أصقاع الشمال الباردة ، ما ألهتهم عروبتهم الخالصة عن نسيان وطنهم في سيبيريا ذات البرد القاتل ، ولكان جوابهم : نحن عرب ، ولكننا لا نريد بغير وطننا بديلا

إن الشعوبية أو العصبية الجنسية لها أواصرها القوية ، وروابطها المقدسة ، ولكن روابط الأوطان تظل أبداً أقوى وآكد ، لأن روابط الشعوبية تقوم على الدم واللغة وطراز الحياة ، وهي في جملتها روابط روحية بحتة في جملتها وتفصيلها ، إنها الروابط الرفافة ذات الإشراق بين الوطن وقلوب بنيه ، تضيء وتضيء ، وتلطف وتلطف ، حتى تسبق في ضيائها ولطفها خواطر المتصوفة ، وأروع ما فيها أنها قد تكون روابط ذكريات كلها دموع وشجن ، ولكنها مع هذا حبيبة إلى النفس ، وهي سلوتها في حياة تزدحم بالشرور والآلام ، ولكن من أين للرئيس ترومان أن يدرك هذه الروحيات ؟

قل لي أيها الرئيس : ماذا يستطيع عرب فلسطين الذين أخرجتهم عنوة من وطنهم أن يصنعوا إذا أرادوا دعوة فيصل لزيارة وطنهم كما دعوته أنت لزيارة وطنك ؟ ماذا يستطيعون أن يصنعوا وهم أحق منك بهذه الدعوة لأسباب كلها الصدق والوفاء : لأنه عربي مثلهم ، ولأنه سيد شعب ، وسليل بيت ، وأثر نبوة . فهم حين يدعونه إنما يقيمون دعوتهم على دعائم كلها المودة والصدق الخالص الصريح . وأغلب الظن أنك ما دعوته إلا بعد أن أمسكت بقلم الحاسب الذي يعتمد على الأرقام والأعداد من يدري ؟ لعلك قد خرجت من هذه (الحسبة) بنتيجة خاطئة ، فتوهمت أنها قد تعطيك (جالونا) من بترول العراق !

من سوء حظ العرب أن عوت روزفلت ، وقد نهضوا

لاسترداد حقوقهم . لقد كان روزفلت رجلا جهيد الجسم ، ضخم الأعطاف ، بعيد المناكب ، ومثل هذا الجسم الكريم هو صورة لكرم النفس وسخائها وتأثرها ، وهو إذا جاع أو برد كان إحساسه بالجوع والبرد أسرع وأبعد من غيره من الأجسام الضئيلة ، لأن الشعور بالحاجة فى الجسم الكريم السخى أكثر منه فى الجسم البخيل بأصله ، الجائع بطبعه . والرئيس ترومان له جسم ككل الأجسام ، ولكنه ضنين بخيل . وهو فى بخله وضنه ليس على استعداد لأن يحس الجوع والبرد — فضلا عن أن يحس الحزن لفقد الوطن — لأنه جسم جائع من قبل أن يناله الجوع ، بارد من قبل أن يصيبه البرد . ومهما بلغ الجوع والبرد من الشدة فلن يكون لهما أثر ملحوظ فى جسم ينقصه الشبع ، ونفس ما عرفت الوفاء ، وماذا يصيب الفتر من الفقير ؟

عقب تولى الرئيس ترومان سأله كثير من الصحفيين : « أما يفكر الرئيس فى أن تقبل الولايات المتحدة استقبال بضعة آلاف من يهود أوروبا ؟ — وكان ذلك قبل أن ينفذ نيته التى بيتها للعرب — وكان جواب الرئيس : « أنه لا يفكر الآن فى تغيير قوانين البلاد ... »

إنه لا يفكر فى تغيير قوانين بلاده الموضوعة ، فهو يحترمها ولا يأذن بالهجرة إليها على ثروتها واتساعها . ولكنه يفكر فى إخراج الناس من أوطانهم لقاء أصوات الناخبين من اليهود !

حين تولى الرئيس ترومان ذكرت بعض الصحف حديثا لكاتب يصف فيه الرئيس الجديد بهدوء الأعصاب ، ورباطة الجأش ، وقد بالغ الكاتب فى وصفه حتى قال : إنك لو ضربته بقبضة يدك فى أرنبة أنفه على حين غفلة منه ما تحرك هدب عينيه .. » وقد تكون قوة الأعصاب محمودة فى الرجال عند الحوادث التى تصيبهم ، أما الرباطة والهدوء فى كوارث ينسجون لغيرهم حوادثها ، ويعقدون فيها المؤامرات فليس ذلك مما قصد إليه الكاتب ، لأن فرقا واضحاً بين الرباطة والقسوة ، وبين الهدوء والجمود ، وبين قوة الأعصاب والبلادة ، وإذا كانت السياسة تقوم على الخدعة والمناورة ، فليست (الثعلبة) من معانيها فى أى قاموس إنسانى ، يصطنعها الأقوياء للسرقة والسطو ، فإن كانت السرقة عنوة وفى النهار الضاحى من معانيها ، فهى ليست السياسة إذن ، ولكنها صناعة الوحل ، وإن سماها الظالمون « حق المهنة »

قالوا إن جماعة من خلصاء ترومان سألوا وألحفوا فى السؤال : « مابال الرئيس لم يتقدم فى الانتخاب الحاضر لرئاسة الجمهوريات المتحدة ؟ » وظل الرئيس ساكتا لا يجيب ، مع إلحافهم وكثرة سؤالهم ، وظل الجواب مجهولا ، حتى عند الخاصة من خلصاء ترومان ، حتى أبصره خدم البيت الأبيض فى لحظات خاطفة ، يهرع إلى تمثال الوطن ، يطيل النظر فيه ، وتجرى فى لسانه مناجاة خافتة مضطربة ، يتهدج فى خلالها صوت جريح مخنوق :

« يسألونى : لماذا لم أتقدم فى الانتخاب الحاضر لرئاسة الدول المتحدة ؟

لأننى لم أعد أحب أن أكون رئيساً فى انتخاب ملوث ، أشترى فيه أصوات الناخبين بأوطان الناس »

« باريس » على شرف الدين

ظهرت الطبعة الرابعة الجديدة للمجلد الأول من كتاب

وحى الرسالة

للأستاذ أحمد حسن الزيات

طبع طبعا أنيقا على ورق صقيل وقد بلغت عدد صفحاته خمسمائة صفحة ونيفاً

وهو يطلب من إدارة الرسالة ومن جميع المكتبات وثمنه أربعون قرشاً عدا أجرة البريد